المرآة
هالة ابراهيم

المرآة (قصة قصيرة)

الخازندار للنشر الالكتروني

****

العنوان :جوار مدرسة اللواء رفعت عاشور الثانوية- ميت سلسيل- الدقهلية

هاتف : ٠١٠٠٠٠٩٩٣٩٠

العنوان: نالمرآة

الكاتب:هالة ابراهيم

اخراج فني: الخازندار للنشر الالكتروني

جميع حقوق النشر الالكتروني محفوظة للكاتب/ة تحت اشراف موقع الخازندار للنشر الالكتروني، و غير مسموح بنقله أو مشاركته أو نشره الكترونيا دون اذن مكتوب من الكاتب

الخازندار

المرآة

قصة قصيرة

هالة ابراهيم

جوقة من نسوة متشحات بالسواد يحطن بها، يتبعن نحيبها بولولتهن، حتى مسها الكلل فصدر من حنجرتها أنين لم ينقطع مع حركة جسدها يمينًا ويسارًا، واشتد عويل النسوة يدعمنها بترانيم النواح..

وبركن قصي من الغرفة جَلَسْت، عيناي ترصدان ما يدور دون أي بادرة للشعور،

وجهي متعادل كصفحة ماء راكدة، بعد أن فشلت في إلباسه ثوب المواساة، فالعويل من حولي يصم أذني دون أن يمس شغاف قلبي، وأخيرًا تنهدت أُمْنِي نفسي بقرب الخلاص من هذا العرض الكئيب..

_" (ونيسة)، لِمَ تجلسين بعيدًا؟!،

اذهبي إلى تلك المسكينة، فلم يعد لديها غيرك»

رفعت عيني إلى تلك العجوز، أتلقى نظرة عدم الرضا التي ترمقني بها بأخرى باردة، فوكزتني بقوة قائلة بحنق :

_"تحركي، زوجة خالك كانت دومًا بجوارك تنصرك وتساندك، هيا سددي ولو جزءًا من دينك»

استجبت لها مرغمة، وببطء نهضت متجاهلةً مصمصة شفتيها وغمغمتها الممتعضة بشأني مع جارتها، واقتربت من زوجة خالي التي عاد إليها نشيجها، فور أن التقت عينانا وهي تقول بصوت متقطع :

_" ماتا يا (ونيسة)، خسرت الصبي والصبية»

ثم أطلقت صرخة قوية وهي تضرب بيمناها على قلبها قائلة بنحيب :

_"ناري كتب عليها ألا تخمد، آه لو أن هذا القلب ساكن، فالراحة عليّ حُرمَت طالما نبضه دائب»

فتحت فاهي أحث الكلمات على الخروج، إلا أنها أبت، فلم أجد بُدًا من الجلوس بجوارها، وإسناد رأسها إلى كتفي، وأنا أربت عليها بآلية، لتعود إلى أنينها...

ضغطت شفتيّ، وأغمضت عيني؛ لأسبح بعيدًا إلى يومي الأول في هذا القصر، علّ اجترار الذكرى يرسم البؤس على وجهي، فيرضي العيون المتلصصة التي تحاصرني...

وسرعان ما استعدت انتفاضة جسدي ذاك اليوم وصوت خالي يرن بأذني حين وقف عند مدخل قصره يرمقنا من علو ويقول بصوته الجهور:

_"لماذا عدت يا (آمنة)؟!،

علاقتك بنا انقطعت في اليوم الذي هربت فيه من زفافك؛ لتتزوجي من (رحيم) _ نباش القبور_ رغمًا عن إرادتنا» حينها تواريت خلف عباءة أمي، وأنا أسمعها تقول مدافعة:

_" إن كان أبي قد خدع فيه، وسمح له بدخول البلدة والتردد على القصر على الرغم من أنه نادرًا ما يمنح ثقته لأحد، فلا تلمني إذًا إن ضللت بهيئته الشبيهة برجال الدين وحديثه المشابه لهم، لقد أقنعني بمنطقه وأغرقني بحبه، وحين اتهمه أبي بالدجل ونبش القبور بحثًا عن الآثار، إيماني بحبي جعلني عاجزة عن التصديق، فوجدتني أهرب إليه وأوافق على زواجي منه..»

ثم سارعت تقول بلهفة :

_"ولكن أيًا كان ما حدث فقد تحررت بموته، وها أنا هنا بإرادتي أتوق إلى الأمان ببيتي، وكم كنت أتمنى أن أغمر نفسي في حضن أبي "

ضحك الرجل وقال ساخرًا وهو يستند بكلتا ذراعيه على عصاه:

_" طوال السنوات الماضية يدي كانت عنك مرفوعة، بسبب وعدي الذي أجبرني على قطعه له وهو على فراش الموت، حين اختفيت كان أبانا واثقًا أن (رحيم) قد اختطفك انتقامًا منه بعد اكتشافه أن الأخير لجأ إلينا هاربًا من شركائه في سرقة الآثار و الفضيحة التي سببها له وطرده خارج البلدة، فاجتمع بقامات الصعيد وحشد الرجال وسخرهم للبحث عنك حتى وجدك ، وبقدر ما كانت فرحته وهو يقود رجال الأمن إلى مكانك ليقبض على ذاك اللص ويحررك من براثنه، كانت حسرته حين وقفت أمام الجمع متشدقة باعترافك بهيامك به وانتمائك إليه فهو زوجك ورجلك ، أما أبيك يلصق به التهم لرفضه لزيجتكما، لن أنسى ما حييت كسرته بعد أن أذللت ناصيته وحطمت قلبه ، لأيام كان روحًا ميته داخل جسد حي ، حتى استسلم وصعدت روحه إلى بارئها»

شَعَرْتُ بتشنج جسدها وهي تقول بضعف :

_" صدقني كنت مغيبة تمامًا، لو كنت بعقلي ما تركت بيتي أبدًا، ولقد دفعت الثمن

خزي وذل بعد ان انقشعت غيبتي، وعاد إلي وعيي، مرات فكرت بالهروب، ولكن صغيرتي (ونيسة) ..»

أرفقت كلماتها وهي تدفعني أمامها وتستطرد:

_" تلك البريئة كانت قيدي، لم يكن ليسمح لي بأخذها معي، ولم أكن لأتركها في وكره أبدًا "

اختلست نظرة إليه، ليصعقني اشمئزازه، فتواريت خلف أمي مجددًا، إلا أن صوته النافر وخزني وهو يقول:

_" الفتاة ابنة أبيها ، نسخة منه ، وأنا لن ...»

تدخل صوت بالغ النعومة مقاطعًا :

_"تعقل يا (همام)، مهما حدث هي لحمك، لقبها هو لقبك ولقب ابنك، من الأمان لنا ولها أن تعيش في كنفك»

عدت لاختلاس النظر؛ لأجدها امرأة جميلة بعباءة ملونة وبيدها صبي بنفس عمري، وسرعان ما انتفضت عندما دق الرجل الأرض بعصاه الأبنوسية وهو يزمجر قائلًا :

_" هي من تخلت عن كل مميزات هذا اللقب، حين ألحقت بنا وبنفسها العار، لم يعد لها حق في مال او جاه أو عزوة»

سارعت المرأة بالوقوف أمامه؛ لتشكل حاجزًا بيننا وبينه وقالت :

_"وهي لم ولن تطالب بأي منهم ، كل ما تريده هو الأمان في ظلنا ..

دعها تقيم بملحق القصر، إنه فارغ يحتاج فقط إلى التنظيف، وسيكون أكثر من ملائم لها ولفتاتها»

بدا عليه التردد، فربتت على كتفه ، ووضعت كف الصغير بكفه؛ ليأخذ نفسًا عميقًا وهو يقول :

_" لا بأس .. يمكنها الاقامة بالملحق بشروطي، وأولها ألا تطأ قدمها خارج أو داخل القصر، حدودها فقط الملحق والحديقة المحيطة به، سيكون لها خادمة خاصة تحضر لها طعامها وكل ما تحتاجه، والأهم هو أن تكون تلك آخر مرة تقع عيني فيها

عليها»

شعرت بقبضة أمي تشتد على ثيابها حتى ابيضت مفاصلها، وسمعت صوتها المبحوح وهي تقول :

_" هل سأبقى سجينة بملحق الخدم ؟!»

أجابها بصرامة :

_"لأجل أم ابني الوحيد، سأرضى ببقائك في محيطي، وشروطي واضحة اقبليها أو ارفضيها»

تنحنحت وقالت وهي تمسك بيدي وتربت على رأسي :

_" ولأجل ابنتي الوحيدة سأقبل بشروطك ، كي أضمن أن تعيش في عز أمها،

أستأذنك فقط أن تسمح لي بالخروج لآخر مرة كي أحضر أغراضنا «

قال بصلف :

_" سأرسل معك أحد الحرس، فأنت وابنتك منذ الآن تنعمان في عزي وعز ولدي «

شدد على كلماته وأنهى حديثه ببسمة ساخرة، كانت كقبضة التفت حول عنقي وجعلتني عاجزة عن أخذ أنفاسي ...

شهقت وأنا أفتح عينيّ على اتساعهما؛ لأجد رأس زوجة أبي قد مال على صدري بعد أن غلبها النوم من شدة الارهاق ، هززتها وقلت :

_" زوجة خالي، دعيني آخذك لتستريحي بغرفتك «

غمغمت وهي بين يقظتها وغفوتها :

_" خذيني إلى غرفتك يا (ونيسة)"

أومأت برأسي واستأذنت النسوة ، وأنا أساندها إلى غرفتي الكئيبة بركن معزول من الطابق الأرضي للقصر،

ساعدتها لتتسطح على الفراش وقلت بجمود :

_"نامي قليلًا، وأنا بالخارج مع ...

هتفت تقاطعني برجاء:

_" ابقي إلى جواري، أنا بحاجتك «

قاومت لكبح جماحي، ولكن نفد صبري ،فصرخت بها :

_" لماذا ؟!"

ارتجفت أمام هجومي، وقالت بحيرة :

_" لماذا ماذا ؟!»

قلت بشراسة وأنا أميل نحوها :

_" لماذا كل شيء ؟! لماذا أواسيك ؟! ولماذا أبقى بجوارك؟! ولماذا أنت بحاجتي ؟!»

تشبثت بذراعي وهي تقول وسط دموعها التي طفرت مجددًا بعينيها :

_" لأنه لم يعد لكلانا أحد سوى الآخر ،أنا خسرت ولداي، وزوجي طريح الفراش ، وأنت صرت وحيدة بتلك الدنيا منذ فقدت أمك ولم يعد لك ملجأ آخر سواي "

نفضت يدها التي تمسك بي، وقلت بمرارة :

_" تعنين أن أدعك تستغليني كالمرة الفائتة ،ثم تحدث المعجزة وتكتشفين حملك، فتلفظيني مجددًا؛ لأعود ابنة نباش القبور القميئة ، التي ينفر منها الجميع ، فهي لا ترتقي لأن تصير خادمة بهذا القصر "

فتحت فمها لتتحدث، إلا أني سارعت بالقول :

_" نامي يا زوجة خالي، فاليوم كان مرهقًا لجميعنا»

وسارعت بمغادرة الغرفة كي لا تزعجني بحديثها مجددًا، ووجدتني أركض نحو الملحق _المكان الوحيد الذي أتنفس فيه بحرية_ وسارعت بدلوف غرفة أمي، فألقيت جسدي المنهك على فراشها؛ ليسري الدفء بجسدي ،

تنهدت وصحت بصوت متردد:

_" أمي ، مخططنا يسير تمامًا على نهجه، خطوة واحدة ويتحقق لي ما أردتِ »

لحظة وهن تملكتني، فنهضت أغادر المكان، وحين وقع بصري على مرآتي توقفت، وبرهبة مازالت تبثها في نفسي، تقدمت، لنقوشها العجيبة لمست، ثم على الأرض أمامها افترشت... وببطء رفعت عيني أتأمل ملامحي، ويدي تزيح ربطة شعري سامحة له بحرية الانسدال، فتاة عادية في السادسة عشر من عمري، لا يوجد بي ما يريب، ربما هو شحوب بشرتي، وربما هي عيناي العميقتين وما يحيطهما من هالات سوداء..

انتفضت وأطبقت جفوني بشدة وأنا أصم أذني بكفي،،

أمنع عنهما صوت ابن خالي وأصدقائه من الصبية، الذي عاد يرن :

_" ابنة الساحر نباش القبور، تمارس سحرها على العروس الصغيرة «

ضممت عروسي إلى حضني وأنا أهز رأسي بنفي، ولكن أحدهم نزعها ومزقها، وآخر حثهم على رجمي بالحصى كي يزول سحري، وبصعوبة هربت من حصارهم وركضت إلى الملحق كاتمة دموعي، وهم خلفي يطعنوني بتنمرهم،

ومع صيحة أمي القوية، تبدل الحال لتنطلق ضحكتي وأنا أراهم يفرون صارخين برعب؛ لتلحقهم صرختي حين سحبتني إلى الداخل بقسوة وألقت بي على الأريكة،

وبهلع تابعتها وهي تقطع الردهة ذهابًا وإيابًا، وتتمتم بكلمات مبهمة بينما جسدها ينتفض بقوة،

فصحت بها ودموعي تسيل :

_" كفي يا أمي، أنا خائفة "

وكأن صيحتي اقتلعتها من عالم بعيد، فارتخت ملامحها القاسية ولمعت دموعها وهي تهرع إلي، تضمني إلى صدرها و تقول بشرود :

_" إياك والسماح لأحد بالنيل منك أو التقليل من شأنك، ما فعلته وما سأفعله هو فقط لآمنحك الكرامة والحرية ورفعة الشأن "

أبعدتني عن صدرها تتأمل ملامحي المشوشة، ثم مررت أناملها عليها وهي تقول بحنان عجيب :

_" أنت لست ابنة أبيك بل ابنتي أنا،

وحدي من ضحيت لأجلك، كي تصيري مثلي أميرة،

ضَحِكَت وهي تضمني وتقول بحالمية :

_" بقصر أبي كنت أميرته المدللة، لا ينغصني سوى سجنه لي بحبه الزائد وشكوكه الدائمة، لم تكن لي متعة سوى غيرة أخي وزوجته التي تندلع كلما وقعت عيونهم عليّ، حتى وصل (رحيم) إلى قريتنا، وكسر الحواجز واقتحم حصن أبي، رأيته فارس مغوار، أتي لتحرير الأميرة السجينة...

ثم استطردت بقسوة:

_" لم أنتبه إلى المكائد التي يدبرها أخي وزوجته بعد أن تأججت نار خوفهما من حبي وثقة أبي ب (رحيم) تزامنًا مع الخلافات بين أبي وأخي التي زادت، فبثا سمومهما؛ ليطرده بعد اتهامه له بالسحر والدجل، وإعلان زفافي من أحدهم،

ولكني لم أستسلم...

هربت إليه وأقنعته بالزواج وبعد بضعة أسابيع وصل أبي مع حشد من رجال القرية ورجال الشرطة، وفور اعترافي بحبي وزواجي منه بإرادتي، انصرفوا خائبين»

نهضت تقف أمامي تستطرد سردها وهي تنظر بعيوني :

_" بعدها واجهت أبيك بالاتهامات الموجهة إليه ، فلم ينكرها،

أخبرني بكل هدوء أنه كان هذا الشخص، حتى تاب وأقسم ألا يعود إلى ذلك الطريق مجددًا،

جزءًا مني كان متشككًا، ولكني وأدته، حتى مضت سنوات، وضقت ذرعًا أكثر من حياة شاقة لم أعتدها، وغيابه الدائم لجلب مال لا يأتي إلا بشق الأنفس، كنت أراك تكبرين ويصعب علي حالك، عندما أتذكر ما حرمتك منه عندما تخليت عن جاهي،

لتطفو شكوكي، تعبث بعقلي مع الغرفة المغلقة التي مُنِعْتُ من دخولها،

لم أمهل نفسي فرصة للتفكير، وتسللت إليها؛ لتفاجئني غرفة معتمة يغمرها الغبار وخيوط العنكبوت، وبنهايتها مرآة طويلة بنقوش كئيبة..»

رأيتها تشير بيديها وقد حلقت بعالمها الخاص وتقول:

_" جمجمتين على كلا الجانبين، بينهما عصا طويلة تنتهي بنجمة، هززتها لتتحرك

تمامًا كبندول الساعة يمينًا ويسارًا «

صمتت وبدا عليها الانتشاء وهي تترنح في وقفتها،

ثم انتبهت إلى اتساع عينيّ، فضحكت وجذبتني إلى غرفتها المحرمة عليّ ودفعتني أمام المرآه ،

نقلت بصري بينهما، أستمد الشجاعة من نظرات أمي، ولكن رغمًا عني انتفض جسدي، فأحطته بذراعيّ ، أدرأ عنه الخوف، وأنا أملأ عيني بانعكاس صورتي ومن خلفي أمي، بعباءتها السوداء وشعرها الغجري وهي تستطرد بجذل:

_" بكل مرة وقفت أمامها شعرت بالسعادة والحرية، كأنها تمتص أي ذرة ضعف لدي، وتمدني بقوة ودهاء لم أظن يومًا أني أملكهما،

فقط ما كان يحيرني،

لِمَ دومًا أشعر بقيد يربطني ويمنعني من استغلال قوتي على الرغم من تسليمي الكامل للمرآة؟!"

تقدمت لتقف خلفي تمامًا، وقبضت بكلتا راحتيها على ذراعيّ، وهي تهمس بأذني:

_" بعد فترة وجدال مع أبيك فهمت منه الحقيقة، المرآة لم يكن ولائها الكامل لي، بل لأبيك...

حين عثر عليها مع شركائه السابقين تخلص منهم وقدم تضحية الدم؛ ليملكها، ولكنه كان من الجبن بحيث رفض قوة المرآة، وتجاهل وجودها ...

أتذكر جلوسه أسفل قدمي، يستحلفني ألا أستخدم المرآة مجددًا ، وهو سينهك نفسه أكثر وأكثر كي يجلب لي المال، كي تكتمل سعادة عائلته الصغيرة أنا وأنت وهو، فوعدته..

أدارتني إليها، وقالت بقوة دون أن تبالي بارتعادي:

_" دواء بسيط مزجته بشرابه، يومًا بعد اليوم، حتى ارتخى جسده، وسقط أثناء دوامه بعمله، وعندما جاء إلى المنزل محملًا على الأعناق حزنت بشدة، حتى رق الناس لحالي، وفور انصرافهم أعطيته جرعة الدواء الأخيرة، وأخذت بضعة قطرات من دمه أملأ بها الجمجمتين وحين هززت البندول تلك المرة كانت القوة كاملة لي، فقط ينقصها المال ..

لذا أتيت إلى هنا،

لا تخافي يا صغيرتي، لقد شبعت من القوة وسأمنحها لك عن طيب خاطر، فقط نؤمن المال كي أتركك أميرة القصر كما كانت أمك ،

هذا حقك فلا تترددي واقتنصيه".....

فتحت عيوني ورفعت كفيّ عن أذنيّ، أتأمل وجهي الغارق بالدموع وبكل ما يعتمل قلبي من حرقة أطلقت صرخة واعترفت بصوت مبحوح :

_" سرت على مخططك، فتسللت كل يوم أضع الدواء لابن خالي بشرابه،

لن أنكر سعادتي وأنا أرى ضعف جسده، ولا شماتتي يوم موته...

أخذت شهيقًا عميقًا، ووقفت أتأمل نفسي وأنا أقول:

_" ولا راحتي يا أمي يوم كتبت بيدك رسالة انتحارك، ويدك التي أمسكت بيدي وأنت تقطعين شريانك..

لم أبك وأنا أتأمل جسدك المنتفض وهو يسلم روحه، فقد صدقت وقدمت لي القوة حين ملأت الجمجمتين بدمك، وهززت بندول المرآة،

استغليت دهائي كي أمتلك حب خالي وزوجته التي قررت تعويض أمومتها بوجودي،

وعشت أميرة لبضعة سنوات، قررت فيها اتباع نهج أبي وتجاهل شر المرآة، بعد أن أمنت مكانتي، وحصلت على ما أريده أنا ، الأمان والدفء ..

مالم يكن بالحسبان، أن تكتشف زوجة حملها..

رويدًا رويدًا ،انسحب البساط من تحت قدمي، في البداية عزلوني عنهم ووضعوني بغرفة بعيدة عنهم، ومع مولد الفتاة الصغيرة وجمالها الذي يتحاكون به، صارت عزلتي بإرادتي،

كنت أهرب إلى الملحق، أقف أمام المرآة، أحارب هذا الجزء الملائكي، الذي يمنعني من الخضوع لها، وأخيرًا نجحت وبنفس الدواء، فقد خالي قوته وصار أقرب للموتى، والفتاة لحقت بأخيها «

عادت دموعي تسيل وأنا أقول :

_" سأمتلك القصر والمال والجاه والقوة،

لم يا أمي لا أشعر بالسعادة ؟!»

اتسعت عيناي وأنا أسمع صوت زوجة خالي من خلفي تقول بشر :

_" لأنك قاتلة وساحرة كأمك "

صرخت وأنا أهرب من مرمى السكين الذي ألقت بجسدها نحوي تطعنني به، وسمعتها تقول:

_" كنت آتية لأعتذر لك ، ولأستسمحك كي نبدأ معًا من جديد، ولكنك لا تستحقين «

أعادت الكرة وبينما أحاول الهرب من مرماها انزلقت قدمي لأهز البندول وأسقط أرضًا وبركت هي على جسدي تطعنني مرة تلو المرة ومن بين عيون تودع الحياة لمحت انتشائها وترنح جسدها فابتسمت وأنا أغلق عيني بعد أن ضاع الألم ،،،،

تمت